المعاد

حكم المثلين واحد

www.ostadJafari.com

المعاد

ان النفوس اذا تُركت وطبعها، لن تلاحظ لها انقضاء باعتناق الموت، فانها لا تقهر بالزمان والمكان والقوانين المادية ولا تطيع أوامر الطبيعة ونواهيها كى تقع معرضة للفساد. فلو حللنا كل نفس ووصلنا الى أعماقها لرأينا انها تمتزج بالخلود والبقاء. لست اقول: ان قضية الخلود قد سلَّم بها الكل؛ فان التفلسف قد تدخل فيها ايضاً وتشوّة ما تكشف عنه حقيقة النفس، على ما هو شأنه من التدخل فى الحقائق الواقعية وتشويه أمرها، على أن المعاد وهو اليوم الآخر والذى جعله الله كى تُحشر فيه الاجساد مع ارواحها لا يتوقف على خلود الروح بالاساس. فلنفرض ان الروح فانية كما ربما يدل عليه الفرقان العظيم: «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذى الجلال والاكرام»، وقوله عز شأنه«:كل شىء هالک الا وجهه»، الا ان اعادتها مرة اخرى ليست بأصعب من احداثها اول مرة. فمن اعترف بوجود المبدأ الذىخلق الانسان فسوّاه، فقد أقر بامكان انشائه ثانياً، وما أحسن ما أفاده الفيلسوف العظيم «نصير الدين الطوسى» فى بحثنا هذا بأنّ:

حكم المثلين واحد

كانت هذه النشأة ممكنه بمجموعها، ودليلها وجودها أول مرة، فالاستدلال على استحالة العودة مرة ثانية بامتناع اعادة المعدوم بعد غض النظر عن ان الموجود لا ينعدم باصطلاحات فلسفية جوفاء، لا يرجع الى نتاج بعدما كانت الموجودات ممكنة من بدئها، ولا يتضيق على القائل بالمعاد مجال القول بالمثل الحقيقى اذا تم الاستدلال من القائلين باستحالة اعادة المعدوم ايضاً. فبعد الفراغ من امكان العودة ثانياً تثبت ضرورته بالاعتراف بكون المبدأ لم يخلق الانسان ليتركه سدى، وليس فى هذه النشأة جزاء للافعال والنواهى، فيجب ان يوجد يوم تجد فيه كل نفس ما عملت.

ان هذه الحقائق الثلاث هى التى تقوّم الدين، فهل ترى فيها ما يناقض العلم؟ أيمكن أن يتوهم عاقل فى أن لو كان هناک اله لكان الجسم غير محسوس أو غير خاضع لقوانين جعلها الاله ان تجرى عليه؟ أو لو كان العالم حادثاً ومسبوقاً بخالق أوجده، لكان على غير هذا النظام؟ أنتوهّم أنه لو وجبت الصلاة والخضوع والتقرب اليه تعالى لكانت التفاحة بيضوية أو مربعة فى شكلها؟

www.ostad-jafari.com

ولو كلف الله عباده بأن يطّوفوا بالبيت وبأن يأتوا فيه بمناسک معينة للزم أن لا يسقط الحجر على الارض عند القائه من شاهق؟ ولو كان هناک يوم تشخص فيه الابصار لکان محل العيون فی هذه الدنيا الرکبتين بدلاً من أعلى الوجه؟ نرى أنه يستلزم علينا أن لا نغترّ و نکن من البسطاء و نؤمن بجملات جوفاء سيقت لايجاد التناقض بين الدين والعلم فانهما اقدم الاحباء، بل الدين بلا علم لا تجد له أية قيمة، والعلم بلا دين وبلا عقيده صناعة فاسدة. وای عالم لم يعتنق اصولا موضوعة لا تقبل الاثبات عنده وعند غيره؟ فلو أمعنّا فيما مضى من شأن العلم والعالم لعرفنا أنه لا يوجد علم لم يلجأ الى عقيدة موضوعة. ثم أنه من الواضح ان الاعتراض على الاديان ليس جوهرياً على ما يتضح من مقالة المعترضين بل المشاکل المستحدثة انما تشمل أموراً خارجة عن حقيقة الدين. ولاثبات هذه الحقيقة رأينا من اللازم أن نورد بعضاً من تلک المقالات الاعتراضية.

يقول «دنی ديدرو»: «يرتبط دين کل فرد بتاريخه المعين وبلدته التی يولد فيها» (ويقصد «ديدرو» بذلک أن کل زمان يحکم فيه دين کالمکان لا محالة. فاذاً يتعين مسير الفرد الدينیبذلک الزمان والمکان اللذين نشأ فيهما واجبر على الانقياد بعواملهما). تدعی طائفة من الاديان أنها ذوات الوحی والالهام، والحال ان کلاً منها يخالف الآخر ويناقضه، فلو کان هناک من يحکم بمقتضی وجدانه علی ترجيح شیء منها وکان فی غير زمانه وبلده هل کان يحکم به ام لا؟ (اراد «ديدرو» بهذه الجملة: ان ترجيح دين من الاديان يرتبط بان يعيش الحاکم المرجح فیزمان ذلک الدين ومکانه) لکان معتقد جوبيتر مصدّقاً بالله لو تواجد فی بلد الاسلام.

انی أسمع من کل مکان صوت الالحاد والانحراف عن الدين، فالنصرانی يخرج عن دينه فی البلاد الآسيوية، والمسلم يکفر بدينه فی الاقطار الاروبية وکذلک يکفر حامی الاسقف فی «لندن» وتابع الکنيسة فی «باريس»، فمن هو الملحد؟ فاما اعتبار الکل ملحداً، وأما لا أحد ملحد فی الدنيا. أما المسيحيون فيعترضون بما ذکرناه قائلين بأنه لابد من استثناء دينهم عن هذه المشکلة فانه يتکی علی أقوال معتبرة مأخوذة من الکتاب المقدس (لا يمکن الارتياب فيها). قبل کل شیء لابد من أن يکون الدين الواقعی أبدياً، بديهياً، بينما لا نجد ديناً يجمع هذه الامور، لذلک يثبت کذب الاديان مرات ثلاث بثلاثة وجوه:

١ـ کل دين يرتبط بزمانه ومکانه ويعتنق المتدين ما يقتضيه زمانه الخاص ومکانه المعين.

٢ـ کل فرد يغيّر معتقده فی غير محيطه الذی عاش فيه وصار معتقداً فيه.

٣ـ ان الدين الواقعی لا بد ان يجمع الابدية والعمومية والبداهة. وليس هناک دين يتصف بها. والوجه الاخير اعظم خطراً علی المسيحية من سائر الاديان. هل نزل الدين المعنی به الی جميع بنی الانسان؟ ويأتی الجواب کلاّ. لانه نشأ فی زمان معين ولم يکن من سبقه عالماً به. هل کان موجوداً فی جميع الازمنة؟ هنا نلاحظ أيضاً

www.ostad-jafari.com

أن الجواب يكون كلاّ. لان المسيح انما ظهر فی زمن معين. هل انبتت المسيحية عقائد غير مشكوك فيها؟ من الذی يدعی ذلک؟ حينما نحدق النظر فی أساطير المعصية الاولی (التی ارتكبها الانسان الاول) هل يوجد هناک شعور سليم يعلّل ابتلاء جميع افراد الانسان بالمعصية بما فعله ابوه الاول؟ وهل يوجد عاقل يعتقد بلزوم كون الطفل من اهل النار اذا مات قبل ان يغتسل كفارةً لمعصية ابيه؟ لكن المسيحية تبالغ فی القول بالاعتقاد بروايات الانجيل والتوراة، بينما ليس هناک ای دليل لهذا الاعتقاد الا ان تكون هذه المتون العتيقة ذات مسحة الهية وسماوية والحال ليست فيها الميزة المذكورة لوجوه:

۱ـ ان صياغة تراكيبها تكن فی غاية السذاجة والبدوية بحيث لا يمكن انتسابها الی الله.

۲ـ ان هذه الكتب البدائية تنقل عدة معجزات قد جاءت فی تواريخ اليونان والروم غير قليل، مع اننا نقطع بعدم ضرورة التصديق بها.

۳ـ تحتوی هذه الكتب علی جمل وردت فی النجوم والعلوم الطبيعية تكشف عن جهل كاتبيها، فكيف يمكن الاعتقاد بصدورها عن اله عالم قادر.

۴ـ ان بين الكتب المقدسة اختلافات فاحشة. وأشد ما يثير التعجب انه هل يليق بالله ان يشرع قوانين مؤقتة وعابرة؟ ولكی يثبت عدله يكون مجبراً علی تغييرها، بل ينسخ ما شرعه أولاً ويلغيه تماماً، ثم يقنن دستوراً آخراً. فلو أرينا المتون الدينية لشخص غير معتقد لراوده العديد من الاسئلة لا يجد لها الا أجوبة مخادعة. وهو اله عجيب لانه لو كان يريد تحسين الدنيا لعجز عن تحقيق مراده. وان أساقفته خدام عجيبون له حيث يسببون الشرور والآلام. ان حب استجلاب المنافع هو الذی أوجد الاساقفة وهم الذين اختلقوا الاوهام والخرافات. والاوهام هی المسببة للحروب، فالحروب تدوم مادامت الاوهام، وهی ايضاً دائمة مادام الاساقفة موجودين، وهم لا يزالون مادام حب استجلاب المنافع موجوداً».[1]

ان مقالة «ديدرو» تتركب من دعاوی تتبنی سخافة الاديان جميعاً ومن أدلة ثلاثة ذكرها لاثباتها، وأدلة أخری أوردها علی خرافة المسيحية خاصة، ونحن نری من الضروری أن نناقش ما زعمه من الامور الدالة علی دعواه حتی يتضح وهنها جميعاً، وقبل أن نشرع فی التحليل لا نری بداً من التنبيه علی حقيقة قد غفل عنها «ديدرو» غفلة لا يمكن للمفكر الاغماض عنها وهی النظر فی الاسباب التی تجعل الدين حقيقة ضرورية يعتنقها الرجل المتدين. نجد هنا أسباباً قوية لترسيخ الدين فی عقل الانسان وقلبه لا يمكننا تجاهلها بحسبانها أموراً خيالية تلقائية أو انها مما يوجد من قبل المحيط (الزمان والمكان). وما نجده من العلل المذكورة نبينها ضمن عدة امور:

۱- ان الافكار العالية التی اعتادت أن تعلل كل ظاهرة فی الطبيعة والانسان تری أن لا نهاية لهذه التعليلات

۱ـ الفلاسفة الكبار، ص ۳۸-۳۶ عن الترجمة الفارسية.

www.ostad-jafari.com

الا أن تصل الى اصول مطلقة لم تُسلِّم مقاليدها للانسان فحينئذ ترى نفسها خائضة فى أسرار و رموز لا تقبل الحل حينما لاتجد لنفسها سبيلاً الى اسكاتها عن السؤال عن العلة الاولى لتلك الاسرار فتفوقها وتحكم فيها. وقد اعترف بهذا التعليل جمع من عظماء الفكر ممن يعتنى برأيه فى عالم المعرفة. قال «هربرت سبنسر»:

ان الدين يولد فى الانسان حينما يرى نفسه خائضة فى بحار من الاسرار.[1]

وقال «الارانى»:

ان الروح بسبب نفوذها الى الامام تحس فى نفسها ذلتين كبيرتين. الاولى انها تجد نفسها فى ميدان الطبيعة غير المتناهية (على حد تعبير «باسكال» لا يحيط بها أىشى ء وهى مركز كل مكان) والثانية أنها مع غرورها المتفاقم تظهر العجز الى حد أن تحترق أجنحة أعلى الافكار فى ذروة اليأس. ويعترف «سقراط»:«ان معرفتىوصلت الى حد عرفت فيه انى لا اعلم شيئاً.

وهذا «ابن سينا» يهتف بأعلى صوته:

هام قلبى أفق بيداء الوجود　　لن ينل شيئاً ولو كثر الجحود
أوقدت قلبى شموس المعرفة　　ليت تحظى الذروة قيد الانملة

ويقول أيضاً: يموت وليس له حاصل، سوى علمه أنه ما علم

وقد استكان «الخيام النيسابورى» قائلاً:

لعب الدور بنا حين الغدوّ والرواح　　لن نحط ختم ولا البدء من الامر المتاح
لا ولازال السّتار حين أحدقنا النظر　　كيف جئنا كيف أبصرنا الى أين المفر؟

ويقول «جوته» :«وبعد ما حصلت الفلسفة والطب والحقوق والفقه والاصول (مع الاسف) قد وقفت الآن كالمجنون لم تزد معرفتى عن الحالة الاولى التى كنت عليها...» وقد نرى «أناطول فرانس» فى حسرة مدهشة لان جوانبه مليئة بعلامات استفهام لم يجد لها جواباً: يتحسس الانسان هذه المسكنة منذ اليوم الاول وهو يحاول ان يرفعها ويستريح منها بمعنى انه يبحث عن ملجأ كى يعتمد عليه وهذا الملجأ هو العقائد الدينية».[2]

وقد أجاد «فرانس» فى كتابه (حديقه ابيقور) فيما يرجع الى السبب المذكور حينما قال:

ان من حسن الاديان وقدرتها انها تعلّم الانسان علة الوجود وعاقبة الامر، فلو طردنا الاصول وعقائد الفلسفة الالهية (على ما نتخيل نحن فى هذه العصور، عصور العلم وحرية الفكر) لم يبق لنا ما يعرّفنا لاى شىء خلقنا، وقد أحاطت بنا الاسرار العظيمة.... وان الجذور الاولية للآلام والاحزان انما هى جهلنا بعلة وجودنا، ولو كنا

١ـ نقلا بالمضمون عن نشأة الدين، ص ٢٢.

٢ـ علم النفس، ص ٢٠١ و ٢٠٢.

www.ostad-jafari.com

معتقدين بمشيئة الاله لكنا نتحمل جميع الآلام الجسمية والروحية من احساس سعادة الخاطئين وذلة رجال الصواب والعظمة، ان المؤمن بدين ليهون عليه العذاب والالم».[1]

وقد نقل لى أحد الفضلاء قصة ظريفة تفيد بحثنا هذا وتؤيد ما استحسنه «آناتول» حيث قال: حينما كان يعالج قرحه جوفاء فى احدى مستشفيات المانيا، استصوب الطبيب المعالج أن يجرى له عملية جراحية ففعلة وأمره ان لا يتحرك لفترة معينة. خلال تلك الايام شعر بتحسن وقام يصلى بركوع وسجود، فدخل عليه مساعد الطبيب المعالج يوماً ورأى اشتغاله بالصلاة وتحركه فيها فأخبر الطبيب المعالج بتلك الحركات فدخل الطبيب عليه وسأله عن فعله وعلّة حركاته فأجابه ابنه (لانه كان عارفاً باللغة الالمانية) ان أباه يصلىويتقرب الى الله. فقال الطبيب: اما انى فلم يثبت عندى ضرورة هذه الافعال ومع ذلك لا أنكرها بل أراها حسنة ثم قال: انى كنت أقوم بمعالجة جرحى جيوش الحلفاء فىالحرب العالمية الثانية، اذ رأيت ظاهرة عجيبة مدهشة حيث كان يؤتى ببعض الجرحى مصابين بجروح بسيطة الا أنهم كانوا فى منتهى الوهن وكأنهم سيموتون بعد ساعة رغم قوة أجسامهم. وعلى العكس من ذلك كان يؤتى بآخرين قد اصابتهم جروح شديده وكانوا فىحالة كأن لم يصابوا بأية جروح أبداً فكانوا ضاحكين فرحين بينما لم تكن قواهم الحيوية متحملة لتلك الجراحات، وهذه ظاهرة تقوض بناء الطب الثابت بالتجربة والعيان، فأننا نقطع بأنه كلما كانت القوى الحيوية والاعصاب الجسمية قوية اشتدت مقاومتها عند الاصابات. ولكننى لم اقنع بالمشاهدة والدهشة فقط بل كنت أبحث عن علل الظاهرة وعن سبب سقوط الاولين ونجاح الآخرين وقد سألت الجرحى أنفسهم فرأيت ان الساقطين بالجروح البسيطة مع ما لديهم من استعداد للمقاومة لم يكونوا يعتقدون بشىء وراء العالم المحسوس بينما كان المقاومون معتقدين بعقائد دينية وينسبون الآلام والمكاره الى قضاء وقدر أو كفارة ذنب وامثالها.

وقال «كاريل» ـ من أكبر علماء علم وظائف الاعضاء ـ فى عبارة له جاءت فى تحليل حقيقة المذهب:

يوجد اليوم كما فى سائر العصور رجال ونساء ليست الحياة غاية مقصودة منحصرة لهم، وايضاً ليست الحياة فى عقيدتهم الموهوب الاعلى الذى يستلذ منه، وانما يقصدون بالحياة الوصول الى العشق والجمال والصلة بالله. ولم تجب الفلسفة على اسئلتهم الا بأمور تافهة لا يعتنى بها. ولم ينجح «سقراط» ولا «افلاطون» فىتسكين الاضطرابات الحيوية، وان المذهب هو الذى يقدم الحل النهائى للمسائل الانسانية وهو الذى اوجد غاية الاطمئنان فيما يرجع الى غاية الحياة طيلة القرون.[2]

وقد فحصنا عن كل نظام فلسفى أوجده الانسان لفهم حقائق الكون والحياة فلم نجد من اطمأنت نفسه

١ـ حديقة أبيقور، آناتول فرانس، ص ٣١، عن الترجمة الفارسية.

٢ـ طريق الحياة، ص ١٢٦، عن الترجمة الفارسية.

بفلسفته التى أوجدها ولم يخلصها من الشكوك والظنون التى لا تزيل الاضطراباب عن النفس، فكيف يمكن أن يجد سائر الناس معالجة دائهم فى تلك الفلسفات؟ ونحن وان لم نعلل الاديان بكونها أسباباً لرفع المكاره فقط، ولكن مما لا شك فيه انه من أعظم آثارها وأوضح لوازمها كما تنبه عليه «فرانس» :

من المفكرين من يغمض النظر ويقطع حسه عن الاسرار الكونية التى تنادى بملايين من الالسنة الطبيعية والانسانية بأعلى صوتها: ان الاضطراب والتشوش والدهشة، من تلك الاسرار التى لا ترتفع الا بذكر الله. نعم:

«ألا بذكر الله تطمئن القلوب»

وهذه الطائفة لا تنفى ضرورة التوجه الى المبدأ الاعلى الا باثبات مبادى أخرى غامضة مبهمة. ما احسن تمثيل الموضوع بقصة ينقلها «دوستويفسكى» عن:

مثقف متنور الفكر قد علا فكره يوماً (الى قمة معرفة الطبيعة) فمحا صورة كل مقدس فى معبده الصغير الذى كان يزينه بتلك الصور والتماثيل ثم وضع مكان تلك الصور المقدسة كتب «بخنر» و« مولسكوت» ثم أنار الشموع التى كانت قبل ذلك تضيىء تلك الصور. نعم قد تبدل موضوع عقيدة صاحبنا فهل تبدل اصل العقيدة؟

ومعنى ذلك كما ان العقيدة الدينية كانت مقدسة لا تقبل الارتياب والاستدلال، كذلك ليس كل ما فى كتب الفلاسفة الملحدين مما يقبل الاستدلال المنطقى والرياضى. فالعقيدة الدينية تتألف من أصول لا تقبل الشك والاستدلال، والعقائد الفلسفية مادية كانت أو غيرها لا تقبلهما ايضاً.

٢- يعتبر الخضوع الغريزى للمبدأ الاعلى من الاسباب القوية لاعتناق الدين وقد سلك هذا الدرب بعض المفكرين فى اثبات ضرورة الدين كشيلر ماخر، ويمكن ارجاع ما قيل من سبب آخر لضرورة الدين الى العلة المذكورة وهى غريزة احساس اللامتناهى. وهذان السببان أو السبب الواحد على ما نقلناه من الاحتمال يحتاج الى ايضاح نذكره على سبيل الاختصار: لا نشك فيما ذكر من الميل الى الخضوع للمبدأ الاعلى فانه محسوس فى كل فرد عاقل الا انه لابد من تقسيم هذا الميل الغريزى الى أمرين ربما يتغايران فى الاستنتاج: اولهما: ـ تكون الظاهرة المذكورة على بساطتها مورداً للاستنتاج المذكور.

وثانيهما: ـ أن يراد بها أن الفطرة الاولى السليمة من الاعراض المحرّفة تجد فى أعماقها رغبة الخضوع والتوجه الى وجود أعلى مما تجده فى عالمى الانسان والطبيعة. اننا نظن قوياً ان الظاهرة على صورتها الاولى لا تساوى صورتها الثانية فى الوضوح والدلالة على ضرورة الدين، فان الخضوع للمبدأ الاعلى يمكن أن ينشأ من خوف الاضطهاد من ناحية الاقوياء فى الطبيعة ولا يستند الى حقيقة أخرى. ولكن الصورة الثانية تخلو من

هذه المشكلة وتزيد على برهنة «ديكارت» من جهة اثبات ضرورة الخضوع للوجود العالى‌ايضاً، فى حين كانت تلک البرهنة لا تثبت الا بوجود المبدأ الاعلى، بيد أنه يقال أن ثبوت الواجب الاعظم بنفسه يلازم ضرورة الخضوع له. ويمكن أن نفسر هذا السبب بما جاء فى مقال كثير من المفكرين ومنهم «لانک» الاسكتلندى:

ان كل انسان يجد فكرة السببية فى نفسه وهذه الفكرة تكفى فى التزامه بعقيدة ودين.[1]

۳ ـ هناک سبب ثالث قد عدة بعض العظماء من عوامل ضرورة الدين فى النفوس وهو أعم من الاسباب الماضية وخلاصته:

ان كل مفكر ساع فى سبيل الحقيقة يحس بوجود عامل الايمان فى نفسه ان اراد أن تشتغل قواه الروحية فى نظم واتساق، ولذلک لم يكن من الصدفة العمياء اعتناق عظماء المفكرين فى كل عصر لدين من الاديان.[2]

والذى نعتقده أنّ سبب التدين لا ينحصر فيما ذكر من الاسباب بل انها تزيد عن العشرات. عندما نبحث عن الافكار البشرية وعن حقيقة الدين نجد أنها يجمعها جميعاً أمران وهما المنطق العقلى، والاحساس القلبى[3] فى حين انها جميعاً تبتدى من الاعتقاد بالله.

فمثل قضية النظام الحاكم فى الكون دليل منطقى يؤدى الى اليقين بوجود الله تعالى فبالتكليف والمعاد ومثل شهود الوجود العالى مما يحسه القلب ويؤمن به، فعلى «ديدرو» وأمثاله أن يبحثوا عن هذه الاسباب قبلما ينتقدوا الاديان بجملات سوقية لا ترجع الى حقيقة منطقية تثبت خرافة الاديان.

فلنرجع الى أدلته التى تخيل له أنه أقامها على بطلان الاديان، وقد قسمناها الى ثلاثة اقسام :

۱ـ نشأة الدين، ص ۱۸۴.

۲ـ اين يذهب العلم، ماكس بلانک.

۳ـ ولقد اعترض المتوسطون من المفكرين على صحة الاستنتاج من الاحساس القلبى فى معرفة الحقائق، ولكننى اسمع صوت القلب فى كل زمان ومكان عن كل انسان مفكراً كان أو متوسطاً أو أمياً محضاً، وأرى تعليل عشرات من الحقائق التى لا يخبر عنها العقل يعالجها القلب فحسب، وقد رأيت فيما مضى مفكراً جباراً يحدث نفسه بخطابات يوجه ها الى القلب قائلاً: أيها القلب لست أدرى ما حقيقتک وأين مكانک؟ لست أدرى أأنت قطعة دموية؟ أم أنت لغز من الغاز الاعصاب التى لم تُحلّ الى الآن ولن تُحلّ ابداً أو انک لست الانشاطاً من أنشطه المخ؟ كن كما شئت ان تكون، ولكن انت الذى تعرفنا الحقائق بشهودک النافذ فى اعماقها كالخير والعدل والجمال والاستلذاذ بالموسيقى وحب الحق. بل ونفس حاكمية العقل كلها تستند الى شهودک ولولا احساسک تلک الحقائق وتصديقک اياها لما كان منطق العقل يرشدنا الى شىء منها، بل انک تتصور مفاهيمها بأزيد مما نتصوره عندما نسمعكلمات جوفاء تتلاعب بها الافكار وقد اخذ كل احد نصيبه الاوفى منک. وكان ديدرو نفسه يغفل عن نفسه « عندما يرى الحقيقة والصدق ويتلذذ بمشاهدته، وبالعكس حينما كان يرى ظلماً، يتأثر بحيث يفقد قدرة القضاء الصحيح كما ان منظراً كان يحس فيه العدل والانصاف يفرح ويسرمنه بحيث لايرى نفسه تأبى عن تسليم حياتها فى تلک اللحظة، وحين ذاک يرى قلبه منبسطاً فى باطنه وسابحاً (فى بحر محفوف بالاسرار...) » ديدرو، الفلاسفة الكبار، ص ۹۷.

www.Ostad-Jafari.com

الاول ـ كل دين يرتبط بزمانه ومكانه وان المتدين يعتنق ديناً يقتضيه زمانه الخاص ومكانه المعين، نقول أولاً: ان ما زعمه من قانون التبعية لم يثبت علمياً بحيث لا يشوبه ريب وان جنح اليه جمع من مفكرى العصور الاخيرة، ولكى نوضح هذا التوهم يجب علينا ان نقدم نبذة مما نراه فى تواريخ الانسان من قدرته على اجتناب عوامله الزمنية وعلى الالتزام بما يخالف ما يحيط به، وليعلم قبل ذلک اننا لا ندعى بطلان قانون التبعية كليةً فانه ايضاً خلاف المحسوس، وانما نحاول ان نرفع اضطرار اعتناق الانسان لما يحيط به على طريقة السببية الكلية فنقول: نرى ان محيطاً صغيراً يتضمن عقائد مختلفة واديانا ً متضادة، والعوامل السياسية والاجتماعية والطبيعية تجرى على نسق واحد فى بلدة محقرة، مع ان قاطنيها تعتنق اديانا ً مختلفة وعقائد متشتتة وعلى العكس من ذلک نرى ديناً واحداً قد انتشر فى نقاط مختلفة تحيط بها عوامل متضادة. نعم، لا يمكن الشک فى ان العوامل الطبيعية ايضاً تؤثر اثراً كبيراً فى العقول والقلوب ولها دخل فى بلورة الرسوم والعادات. الا ان القول بالسببية التامة بين الدين والعوامل الطبيعية يخالف المشهود الواقعى، ومن المقطوع أن كلاً من اليهودية والمسيحية والبوذية والاسلام انما وجد فى نقطة خاصة محاطة بعوامل خاصة، ثم انتشر فى الآفاق المختلفة وصيّر المحيط تابعاً له، والسبب الوحيد لذلک ان غريزة التأثر بعوامل المحيط انما تفعل فعلها الى زمان محدود، ولعله يمتد الى خمس عشرة سنة فهو فى معرض التأثر بالعوامل الى الوقت المحدود ثم تأخذ فكرته سبيلها الاستقلالى فتقدر على جعل المحيط تابعاً لها أو أن تمنع نفسها عن التلون بألوانه واشكاله على أقل تقدير. ان ظاهرة الانقلابات الاجتماعية اوضح شاهد على استقلال النفوس فان فكرة القيام على تقويض بناء مستمر قد اتقنه الافراد وعوامل المحيط دينياً كان البناء أو اجتماعياً، تناقض المحيط وماله من الاسباب، وهذا مما لا يمكن لاحد أن ينكره. فحينئذ ماذا يجيب عنه أمثال «ديدرو»؟ ولم نر الى الآن جواباً عن تلک الظاهرة الا بعبارات لا تدل على معان واقعية. ثم ان هناک حقائق تشترک فيها النفوس عامة من دون اختصاصها بأمة دون اخرى وبمكان دون آخر وهذه الحقائق العليا هى:

الله والتكليف والمعاد

لم يزل التاريخ الانسانى يخبرنا عن الاعتقاد بالله على أنه الظاهرة العميقة التى تمتد جذورها الى أقدم انسان نعرفه تاريخياً، وان كل حدس أو فرض يتهم الانسان الاول بالالحاد لا يؤيده أدنى شاهد صدق. فمن نظر فى علم الاديان والكتب المؤلفة فى تحليل تاريخها واصولها الاولية، يطمئن قلبه بما ذكرناه من كون الانسان من اقدم تاريخه مكبّاً على طقوس ومناسک تدل على توجهه الى شىء يفوق الطبيعة. وانّ مذهب عبادة الطبيعة فيما قبل التاريخ، لو نجا من المناقشات والمشكلات، لم يقم على مبدأ الالحاد كما توهمه بعض كتاب

www.ostad-jafari.com

الموضوع وانما بنى على مبدأ الوساطة.

وبالجملة لم نطلع الى الآن على أمة متواجدة أو ممحية من قبلنا عاشت بلا فكرة الله، و بلا نسک تتقرب النفوس بها الى اله وان اختلفت سبلها. ان من خواص النفس الانسانية أن تعتمد على موجود يفوقها ويعلو عليها ويكون مبدأً للحوادث الكونية والحقائق التىوضعت لها، الا أن الاختلاف انما هو فى تصوير ذلک الموجود وفى الطرق الموصلة اليه کاختلاف الاسماء المشيرة الى مسمّى واحد، وکذلک التکليف وطلب الجزاء الموکول الى يوم آخر، وهذا هو الدين. ويمکن للباحث الدقيق ان يجد هذه الحقائق (المواد الاولية للدين) فى جميع النفوس اجمالاً أو تفصيلاً أو على نحو الاشادة بها وعلى سبيل العموم على الاقل. وأخيراً يمکن للمفکر أن يقطع بأن الانسان بلا دين کقولنا: الانسان بلا ادراک.

لقد أثبت ما ذکرناه من کلام الدکتور «غوستاف لوبون» بعبارات بسيطة وشواهد قوية رأينا من اللازم ان ننقلها بألفاظها حيث قال :

لقد نوّهنا الى أن الجماعات لا تتعقل وانها تقبل الافکار أو ترفضها جملة واحدة، وانها لا تطيق الجدال ولا المناقضة وان التلقين اذ يؤثر فيها يستحوذ على قوة ادراکها فلا يلبث ان يتحول الى عمل، وبيّنا ان الجماعات اذا ما لقنت کما ينبغىاستعدت للتضحية بنفسها فى سبيل ما لقنت من مثل عال، ثم أشّرنا الى أن الجماعات لا تعرف سوى المشاعر الشديدة المتطرفة وان الميل العاطفى لا يلبث ان ينقلب فيها الى عبادة وان النفور لا يکاد يظهر فيها حتى يتحول الى حقد، فهذه البيانات العامة تشعر بطبيعة عقائد الجماعات. ونحن اذا ما بحثنا عبر کتب فى عقائد الجماعات سواء فى ادوار الايمان ام فىالانقلابات السياسية العظيمة کالتى حدثت فى القرن السابق، وجدناها ذات شکل خاص لم نر خيراً من تسميته بالشعور الدينى، ولهذا الشعور مميزات بسيطة جداً وهى: عبادةُ موجود مفتُرض جعلوا له اسماً وخشوه لما يُعزى اليه من القدرة، وانقادوا لاوامره بصورة عشوائية حيث يتعذر الجدال فى تعاليمه، والرغبة فى نشر هذه التعاليم، وعد کل من يرفض اعتناقها عدواً. ويظل ذلک الشعور الدينى من جوهر واحد على الدوام سواء أطبق على اله خفى ام على صنم حجرى ام على بطل أو فکر سياسى. وتجد فى ذلک الشعور ما فوق الطبيعة وما هو معجز على السواء. والجماعات تلبّس مثل هذه القدره الدينية ما يغريها على التعصب من صيغة سياسية أو زعيم منصور لفترة من الزمن. ولا يکون الانسان متديناً الا اذا عبد الهاً فقط، بل يصبح متديناً ايضاً عندما يضع جميع لذات نفسه وجميع انقيادات ارادته وجميع اجاج تعصبه فى خدمة قضية أو موجود غدا غاية المشاعر ورائدها. فالتعصب وعدم التسامح يلازمان الشعور الدينى ملازمة دائمة ولا مناص منهما عند من يعتقد بحيازته سر السعادة الدنيوية أو الابدية حيث نجد أن هاتين الصفتين تتواجدان لدى افراد کل جماعة اذا ما أثارها معتقد ما، فکأن معاقبة العصاة من قبل معتنقى المسيحية کانت تنبع من صميم الکاثوليکية المسيطرة على محاکم التفتيش، فکانت

حماستهم الجائرة تشتق من المصدر نفسه. وتتصف عقائد الجماعات بما يلازم الشعور الـديني مـن الخـضوع الاعمى والتعصب الشديد والاكراه فى الدعوة، ويمكن أن يقال:ان جميـع المعتقـدات ذات صـبغة دينيـة. وان البطل الذى تصفق له هو اله فىالحقيقة، وذلک هو أمر نابليون مدة خمس عشرة سنة، ولم يتفق لاله من العباد المخلصين ما اتفق لنابليون، ولا ترى الهاً استطاع ان يقود الرجال الى الموت بسهولة كما استطاع، ولـم يكـن لآلهة الوثنية والنصرانية من السلطان المطلق على النفوس اكثر مما كان له.ولم يقم واضعى المعتقدات الدينية أو السياسية ببناء هذه المعتقدات الا بعد أن عرفوا ان يفرضوا على الجماعات مشاعر التعصب الدينى التى يجد بها الانسان سعادته فى العبادة والتى تحفزه الى التضحية بحياته فى سبيل معبوده. وهذا ما حدث فى كل دور، وعلى حدّ قول مسيو فوستل دو كولنج الـصائب فـى كتابـه الممتـع عـن بـلاد الغـول الرومانيـة ان سـلطان الامبراطورية الرومانية لم يدم بالقهر قطّ، بل دام بما كان يوحى به من الاعجاب الـدينى. فلـيس فـى تـاريخ العالم مثال على دوام نظام تمقته الشعوب خمسة قرون.... والا لم نفسّر كيف ان فرق الامبراطوريـة الثلاثـين استطاعت ان تكره مئة مليون من الناس على الطاعة. واذا ما اطاع المئة مليون هؤلاء فلانّ عظمة روما كانت تتجسد فى القيصر فيعبد بالاجماع كاله، فتجد له محاريب حتى فى احقر القرى ومما ساور نفوس اهل ذلـک الزمن فى جميع ارجاء الامبراطورية دين جديد كان القياصرة انفسهم آلهته، وقبـل التـاريخ المـيلادى ببـضع سنين اقامت جميع بلاد الغول الممثلة بستين مدينة معبداً مشتركاً للقيصر اوغسطس قريباً من مدينـة ليـون... وكان كهنة هذا المعبد الذين انتخبوا فى مجلس المدن الغولية اعيان بلادهم... ومن المستحيل ان نعـزو جميـع هذا الى الخوف الخسة. فالخسة لا تكون فى شعوب بأسرها، واذا وجدت فلا تدوم ثلاثة قرون، ولـيس افـراد الحاشية هم الذين كانوا يعبدون القيصر، بل روما، وليست روما وحدها هى التى كانت تعبده، بل بـلاد الغـول وأسبانيا واليونان وآسيا ايضاً...

واليوم لا نرى لمعظم فاتحى النفوس هياكلاً ابداً، ولكن نجد لهم تماثيل أو صوراً وما يتفق لهم مـن عبـادة لا يختلف كثيراً عن عبادتهم فى الماضى، ولا يدرک شىء مـن فلـسفة التـاريخ الا بعـد ان تنفذ هـذه الناحيـة الاساسية فى روح الجماعات فمن لم يكن الهاً لدى الجماعات فلا يكون شيئاً عنـدها. ولا تقـل ان هـذه هـى خرافات جيل ماض هزمه العقل نهائياً، فالمشاعر لم تغلـب قـط فـى صـراعها الازلـى ضـد العقـل. اجـل، ان الجماعات عادت لا تطيق سماع ما كان قد هيمن لزمن طويل من اسماء الالوهية والدين، بيد انها لم تقم بدور من التماثيل والهياكل بمقدار اقامته منذ قرن وما قامت به الحركة الشعبية المعروفة بالبولانجية يبـرهن علـى مدى استعداد الغرائز الدينية للظهور ثانية، فلم يخل فندق فى قرية من صورة للبطل وكانت تعزى اليه القابلية على معالجة ضروب الجور وجميع الشرور كما كان ألوف الرجال يضحون بحيـاتهم فـى سـبيله، ومـا اعظـم المقام الذى كان يحتله فى التاريخ لو اتفق له من السجية ما جاء فى اسطورته. ومما لا طائـل تحتـه ان نعيـد القول بأنه لا بد للجماعات من دين، ولا تستقر المعتقـدات الـسياسية والالهيـة والاجتماعيـة بالجماعـات الا باكتسابها شكلاً دينياً على الدوام فتكون به فى حمى من الجدل، ولـو امكـن حمـل الجماعـات علـى الحـاد

www.ostad-jafari.com

لاكتسب هذا الالحاد ما فى الشعور الدينى من شدة تعصب، ولاضحى فى وجوهه الظاهرة ضرباً من العبادة بسرعة. ولنا فى تطور المذهب الوضعى الصغير مثال طريف على ذلك، ويشابه هذا المذهب ذلک الرجل الذى روى دوستويوفسكى لنا قصته. لقد سطعت انوار العقل على هذا الرجل ذات يوم وحطم صور الآلهة والقديسين التى كانت تزين هيكل معبده الصغير، وأطفأ الشمع ولم يبدد من الوقت ثانية فأحل محل الصور المحطمة كتب بعض الفلاسفة الملحدين كبوخنز وغيره ثم اشعل الشموع ثانية بورع. اجل لقد تحول موضوع معتقداته الدينية، ولكن هل يمكن ان يقال ان مشاعره الدينية تغيرت؟أعود فأوكد أن بعض الحوادث التاريخية، ولا سيما اهمها لا يدرک الا بعد النظر والتعمق فى الشكل الدينى الذى لا تلبث عقائد الجماعات ان تصطبغ به حيث يتطلب كثير من الحوادث الاجتماعية دراسةً على منهج علماء النفس اكثر من تطلبه دراسة على طريقة علماء التاريخ الطبيعى. ولم يدرس مؤرخنا الكبير «تاين» الثورة الفرنسية الا كعالم من علماء طريقة التاريخ الطبيعى. فغاب عنه تكوين الحوادث فىالغالب. نعم، لقد لاحظ الكاتب الشهير الحوادث كاملة، ولكنه اذا لم ينفذ فى روح الجماعات يظل جاهلا بالوصول الى عللها فى كل وقت، واذا أفزعته الحوادث من ناحيتها الدموية والفوضوية والوحشية فانه لم ير فى ابطال تلک الواقعة غير قوم من الصرعى السائرين وراء غرائزهم بلا رادع ولا محفّز. ولا يفسر ما نشأ عن الثورة الفرنسية من أعمال العنف وسفک الدماء والاحتياج الى الدعاية وشهر الحروب على جميع الملوک الا اذا عدّت تلک الثورة وليدة معتقد دينى جديد فى روح الجماعات. وما ثورة الاصلاح الدينى ومذبحة سان بارتلمى والحروب الدينية ومحاكم التفتيش والهول، الا حوادث نابعة من مصدر واحد، أى صادرة عن تلقين تلک المشاعر الدينية التى تقود بحكم الضرورة الى ابادة من يعارض قيام المعتقد الجديد بالنار والحديد، وما اساليب محاكم التفتيش والهول الا أساليب المؤمنين الحقيقيين، وهؤلاء اذا ما اتخذوا اساليب اخرى لم يكونوا مؤمنين».[1]

لم يكن بين أيدينا من الذين اجتهدوا فى تحليل روح المجتمع وعروقه وجذوره مثل «لوبون» فى ارجاع ظواهر الجماعات الى جذورها الاولية. فلننظر الى متانة قوله: «**ولا تقل انّ هذه خرافات جيل ماض هزمه العقل نهائياً فالمشاعر لم تغلب قط**»، وقد بينا قبيل نقل العبارات ان الجذور الروحية لا يمكن ان تخالط عناصر المحيط جوهرياً، بل لها الاستقلال فى غرائزها الاولية، ولنا فى تطور موضوعات الجمال ايضاً شواهد على ذلک، فان الانسان من اقدم تاريخه يحب قسماً من الاشكال والالوان والهيئات والاصوات شعوراً منه انها جميلة، وتؤكدها التماثيل الحجرية والمصورة فى سائر المواد. وقد تبدلت تلک الموضوعات بتجدد الازمنة كاختلافها باختلاف الامم الا انّ حب الجمال والرغبة فيه لا زال يعد من غرائز النفوس، ومن هذا القبيل الموضوعات التى يخصص علم النفس ادراكها بالقلب دون العقل.

١ـ روح الجماعات، ص٧١-٦٧ .

ثم انظر فى قوله: «**البطل الذى تصفق له هو اله فى الحقيقة**»، اذ الجماعات لا تقدر على اثبات ما عشقته، منطقياً ولا يقوى عقلها ان يبرهن على ما يؤلّهه، ومن امثلة ذلک: الاصنام الفلسفية التى يقال انها مطلقات ويزعم المتعلم الساذج انها مما قد ثبتت بالمنطق والقانون الرياضى بينما لا يخبر عن وجودها وعن حقيقتها الا بعدة مطالب شعرية وذوقية. وللمطلق تفصيل يأتى. وعلى اى حال لم ينظر «ديدرو» الى النفوس الانسانية نظرة الفاحص عن صميم الموضوع ولم يطلع على حقيقة الشعور الدينى الذى لا يخلو منه فرد من الانسان، وان شئت قلت لا يخلو انسان من عقيدة فلسفية كانت أو اجتماعية أو الهية أو غيرها. ومن العبارات الطريفة التى تشير الى حقيقة واضحة هو قول بعض المفكرين: ان جميع أفراد الانسانية هم اما فلاسفة أو متدينون بدين ولا يوجد ثالث بينهما. نعم كان لـ«ديدرو» واتباعه مزاعم اختلاف خصائص الاديان باختلاف الازمنة متصوراً أنّ ذلک رفض آخر للدين حيث قال: لا يليق بالله ان يضع قوانين موقتة ثم يبدلها فوراً وذلک لاثبات عدالته. ولكن هذه المزاعم التى جعلها «ديدرو» من علامات خرافة الاديان لم تنشأ عن ملاحظة الواقع المشهود، فلو كان ملتفتاً اليه لما جعلها وجهاً يرد به الاديان وذلک لثلاثة وجوه:

الاول، ان جميع القوانين الموضوعية والطبيعية لا تنجو من هذا التطور الملازم للكون. فكل مقنن خبير بشؤون الانسان والطبيعة يقنن دستوراً يتخذه انطلاقاً من مصالح الانسان ومفاسده ثم يعرض التطور للانسان من حيث تكامل عقله وصلته بالكون فيستلزم ذلک تطور القوانين وجعل ما يلائمه ويناسبه. فلم تصدر القوانين الماضية عن جهل، بل انما تقررت بملاحظة الميزات الزمنية وغيرها، وليس تطور القوانين فى طول الازمان الا كاختلافها فى الامم المتواجدة فى عصر واحد. فالقوانين الموضوعة فى صحارى أفريقيا المخالفة للقوانين الموضوعة فى البلاد الاوربية ذات الحضارة الراقية لا تكشف عن جهل واضعها، بل لو فرض العكس وجعل للبلاد المتقدمة عين القوانين المعمول بها فى صحارى أفريقيا لدل على جهل مقننها بلا شک.

وليست نسبة كتاب «روح الشرائع» لـ«مونتسكيو» الى جمهورية «أفلاطون» الا كنسبة نظرية جاذبية «نيوتن» ونسبية «أنيشتاين» الى كتاب الكون والفساد لـ«أرسطو» والى «طيمايس» لـ«أفلاطون». أجل انّ من حاول أن ينظر فى علم الطبيعة فى يومنا هذا بمنظار علم الطبيعة لـ«أرسطو» فهو كاشف عن جهله وحماقته. وملحض ما نذكره فى حل مزاعم «ديدرو» وأمثاله هو أن التكامل فى الطبيعة انما يتم بالتدريج شيئاً فشيئاً وقد اراد الله الحكيم ان يتكامل الانسان من الطفولة الى المشيب ومن القرون الخالية الى العصور الحاضرة. ومن العجيب انّ «ديدرو» لم يثر أى اشكال على هذا التدريج التكوينى ولم يقل انه كان من اللازم لله ان يخلق الانسان على شكل الانسان الذى يعيش فى القرن العشرين دفعه واحدة، وكذلک لم يقل انه لو

www.ostad-jafari.com

وُلد الانسان وهو ذو عقل كامل كما فى الاربعين من حياته لكان ادل بحكمته بل كان هـو مقتـضى الحكمـة. ويتضح من جميع ما أسلفناه ان التطور فى القوانين التشريعية كالتطور فى النواميس التكوينية، وانها اخذت فى الرقى حذواً بحذو التكوين.

ومما غاب عن ذهن «ديدرو» أيضاً الفرق بين انقضاء أمد المصلحة الموجبة لجعل القانون وبـين تبديلـه مـن جهة انكشاف انه خلاف الحقيقة. فقد يجعل احدنا قانوناً عائلياً جهلاً بحقيقة الحال ثم يغيّره بعد انكشافها، وقد يجعل قانوناً موقتاً بوقت معين لعلمه بان المصلحة المقتضية له ستنقضى فى ذلک الوقت، فلو كان المستـشكل ملتفتاً الى العصور الماضية والى اديانها الحقه لرأى ان كلاً من تلک الاديان انما كان يحكم بمقتـضى الظـواهر ونواميس انسانه الموجود. فان قوانين التوراة الاصلية التى نزلت على موسى بن عمران كانت على ما يقتـضيه عصرها، وكذلک ما جاء به عيسى بن مريم انما كان فى أعقاب التوراة وتصرم ما اقتضاه نزول التوراة، ثم جاء المبشر الاعظم محمدبن عبدالله(ص) بقوانينه الكاملة فنسخ بها جميع ما مضى من الشرائع، وهو بقرآنه العظـيم وسننه الابدية تكفّل سعادة الانسان الخالدة الا ان اخواننا الغـربيين لـم يطلعـوا علـى حقيقـة الاسـلام، أو لا يريدون الخوض فى اعماقه حتى يبتعدوا عن الاحكام الجائرة فى حديث الدين.

وقد طغت تلک الاحكام حتى شملت البلاد الاسلامية فغرّت ابناء المـسلمين ايـضاً فـانخرطوا فـى صـفوف الاروبيين هاجمين على الاديان مقلدين بلا فحص عن دليل وشاهد. وهذه بلية عظمى تلعب بعقول المبتـدئين بالعلوم والمغترين بعدة مصطلاحات لطيفة لا تخبر عن معنى منطقى.

وعمده ما يسخر به عقول البسطاء هو تسمية الفرض و التخمين علماً ثم تزويقه بعدة مفـردات ادبيـة ظريفـة. ومن هذا القبيل ايضاً ما كتبه أحد الشرقيين على غرار الغربيين بلا تحقيق وتمحيص وقد جاء فى عبارته:

ولما كان اليونانيون فى تلک المرحلة مقهورين للطبيعة ولم يكونوا عارفين بالعلاقات بـين القـضايا (العليـة والمعلولية) كانوا يصفون كل قضية تجانس الانسان فى انها ذات روح ايضاً ولهذا السبب وجـدت آلهـة فـى القرى والبلاد اليونانية وعبادة رب النوع وسائر الاساطير، فظهرت حينئذ اصول عقيدة التصوف وخلود الـروح وتحقير اللذات الجسمانية وما اليها من التصورات التى يحتاج اليها المقهور والـضعيف. وهـذه العقائـد كانـت بمثابة ردة فعل على ما كان عليه الاغنياء فى عيشتهم الجميلة... ومـن البـديهى ان العقائـد المـذكورة كانـت نتيجة مباشرة للعوامل المادية المذكورة. وقد ظهـرت الآثـار الاولـية للتـصوف فـى «الديونيزيـة» ثـم فـى «الاورفية»... ولم يكن «ديونيزوس»، اله الخمر ولقد صار كذلک بعد زمـان، لان متـصوفة اليونـان كانـت تعتقد بأن الذى كان يوجده ديونيزوس فى الارواح كان شبيهاً بنشوة الخمر. وامثال تلک العقائد كانت تـشغل الشعوب اليونانية. وقد كانت الاعمال اليدوية على عاتق العبيد فـى بـلاد الاغريـق، ولـذلک كانـت للطبقـة

www.ostad-jafari.com

المتوسطة والاغنياء اوقات يخلون فيها للتفكير فى القضايا الطبيعية وعلاقات العلية والمعلولية وقوانين التفكير...[1]

والعبارات كما نشاهدها رتبت بشكل أدبى، ولكنها لا تتضمن مضامين تقطع بها النفس أو تطمئن اليها على الاقل، وذلک :

اولاً ـ ان القضايا المنقولة عما قبل الميلاد تعتبر أمور تخمينية لا يوجد فيها دليل قاطع على اثباتها لا سيما الحوادث الجزئية التى يستحيل تجميعها وتحليلها.

ثانياً ـ لم نفهم الى الآن لماذا يكون دليل الاعتقاد بخلود الارواح وعبادة الرب هو الضعف عن استيفاء الحقوق؟ لانّ المعابد والآلهة المعبودة كان يستقبلها الشعب جميعاً ضعيفهم وغنيهم، كما ان البحث عن حقائق الطبيعة والتفكير لم يكن منحصراً فى طبقة الاغنياء بل ان تاريخ العلم والفلسفة مملوء بالمفكرين الذين كانوا يعدون من ضعفاء الشعب، كما ان تاريخ التصوف يخبرنا انّ الاغنياء كانوا يؤلفون أكبر الاعداد فى صفوف الصوفية، بل ومن هذا النحو ما نشاهده فى العصور الحديثة من رغبة الاغنياء والاثرياء فىالتصوف الى حد اننا نرى فقيراً متصوفاً واحداً بين كل عشرين غنى متصوف. وكذلک الامر فى العصور الوسيطة، فأنظر الى تاريخ ابراهيم بن الادهم من الملوک المتصوفة وغيره.

ثالثاً ـ ليست عقيدة التصوف بتلک الحداثة التى ذكرها وانما هى تنتهى الى الازمنة الغابرة الى كتاب «فيدا» المؤلف قبل عشرة آلاف سنة من الميلاد على ما قيل.

رابعاً ـ ان اعتناق الانسان للاديان اقدم ظاهرة انسانية يخبرنا عنها التاريخ فلا وجه لتخصيصه بالبلاد الاغريقية واغنيائهم، ومما يؤيد ما قلناه ما سبق من الكاتب فى مسألة حدود العلم الذى قد حكيناه عن كتابه «علم الروح، ص ٢٠٢» ان الدين انما اعتنقه الانسان لما رأى نفسه محاطة بالاسرار والغوامض الكونية على انه المعتمد والملجأ ومن المعلوم البديهى ان الانسان منذ صلته بالطبيعة خائض فى الاسرار والغوامض.

وجملة القول ان التاريخ واستنتاج القضايا الاجتماعية والدينية والسياسية هى أشد الاشياء حاجة الى الدليل المتقن المثبت ولا يمكن للمحقق ان يتحكم فيها بما شاء من الفرضيات والتخمينات. ثم ذكر «ديدرو» ان قبل كل شىء يجب ان يكون المذهب أمراً واقعياً ويتوجه اليه جميع الافراد ويكون أبدياً، ولا يوجد دين يتصف بهذه الاوصاف.

لا شک فى ان لكل دين جهتين كبيرتين: العقائد، والاعمال. ان اصول العقائد الدينية التىتلازم جميع الاديان

١ـ العرفان والمبادى المادية، للأرانى، ص ٥ و ۶.

www.ostad-jafari.com

الحقة تبتنى على أمور ثلاثة وقد ذكرناها مراراً وهى: الله، التكليف، المعاد، وقد برهنّا على كل واحد منها فيما سبق واثبتنا انها امور حقيقية وليست خيالية محضة. واما الاعمال فهى وظائف صدرت الى العباد بواسطة الانبياء الصادقين الذين اثبتوا صلتهم بماوراء الطبيعة بمعجزاتهم التى قد صدرت منهم وشهدت على دعواتهم. وقد فصلنا فيما مر أيضاً ان اغلب التكاليف الموجهة الى العباد مما يفهم العقول مصالحها الاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية وان كان يوجد هناک فى الاديان الحقة امور لم تصل عقولنا القاصرة الى عللها الواقعية، فى حين يحتمل قوياً انها ستنكشف انكشافاً تدريجياً كما انكشفت فيما مضى مئات من العلل. فالعقائد والاعمال الدينية امور واقعية ترتبط بصميم الروح الانسانية الناظرة فى الواقع.

واما الشرط الثانى الذى عينه «ديدرو» للدين وهو أن يكون متوجهاً الى جميع الافراد، فما ذكرناه من الامور (الله، التكليف، المعاد) مما لا يخفى على فرد عاقل من افراد الانسان، وانها امور عليا لا يغفل الفرد عاقل عنها أو ينكرها الا باقامة امور عامة اخرى مقامها. نعم ان خصوصيات التكليف التى يبلغها النبى لا بد من وصولها الى الانسان والا فهو معذور لا محالة.

واما الشرط الثالث: ونعنى به أبدية الاديان فهو لا يشمل جميع الاديان الماضية ابداً، وكما قلنا ان الآجال للاديان الحقة تتحدد بحدود التكامل فكل واحد منها يؤدى وظيفته الى امده الموقت ثم يجىء الآخر وهو يناسب ما وصل اليه الانسان من الكمال والرقى، كما ان التكوين ايضاً كذلک على ما بيناه فيما سلف، وبالنظر الى علاقة الانسان بالفرد والمجتمع وصلته بالكون، انزل الله تبارک وتعالى ديناً ابدياً وهو الاسلام الحنيف لا يختص بزمان دون زمان ولا بأمة دون اخرى، ويحتاج التصديق بما ذكرناه الى تجديد الاوربيين نظرتهم فى الحقائق الاسلامية على حد قول جورج برناردشاو ليصير الاسلام ديناً عالمياً يلائم الشعوب والقبائل جميعاً.

www.ostad-Jafari.com